قصة قصيرة

"فاتورة عربية"

وفيق يوسف

أوه . . لقد طالت أظافر قدمي كثيراً . . كيف لم أنتبه لها؟ . . لا أدري من أين جاءتني عادة مداعبتها هكذا! . . هذه العادة سيئة . . يجب الاعتراف بذلك . . أباغت نفسي في أحيان كثيرة ـ وأنا أسوح بين الأفكار والصفحات ـ فأجدني أبحث فيها متلذذاً بيدي اليسرى . . يجب الخلاص من هذه العادة المتخلفة . . أجل . . وإلا ماذا إذن؟

حسنٌ إنني أنهيت هذا الكتاب . . جميل يا أخي جميل . . إنجاز حقيقي . . منذ زمن بعيد لم أقرأ كتاباً بهذه الدسامة وهذه المتعة . .

يجب قص هذه الأظافر . . أجل وإلا ماذا إذن؟ لا يجوز الكسل في مثل هذه الأمور . . .

إيه حسناً، بقي هذا الظفر اللعين . . ينتابني شعور الراحة الآن . . يجب إنجاز كل شيء في حينه، تماماً هكذا . .

ماذا أفعل الآن؟ لست على موعد مع صديق . . والساعة الآن الرابعة . . أجد ذهني متعباً ولا أرغب في القراءة أكثر . . ثم هذه ليلة رأس السنة . . ينبغي أن أسهر في مكان ما . . إيه . . زمن والله . . زمن غريب وصلت إليه، لا أدري أين أذهب؟! . . أنا الذي كنت من أبرز شبّان هذه المدينة . . أنتهي إلى هذه الحال؟!

ولكن يا أخي كتاب ممتاز . . أشعر أنني تقدّمت كثيراً بقراءته . . تفرّغت له طوال أربعة أيام حتى أنجزته . . كم أنا سعيد بذلك . . ينبغي أن أتمشى الآن قليلاً في هذه الغرفة . . ست ساعات من الاستلقاء في السرير للقراءة، أمر مرهق . . كثيراً ما سخر مني أخي الأصغر بسبب عادة السرير هذه . . ولكنني لم أكن أسمح له بتجاوز حدوده . . أجل . . وإلا ماذا إذاً؟! يجب أن تكون التخوم واضحة . . أخ أصغر يعني أخاً أصغر! . . تماماً . . يجب أن يتعلم كيف يُحترم أخوه الأكبر منه . . وإلاّ ماذا؟! تعلّم الثرثرة من الشبّان الثرثارين أمثاله ويريد أن يكون نداً لي . . لم يبق إلا هذا!

يجب أن أنهض الآن . . سأتمطّى قليلاً . . أووه . . . جسدي متخدّر . . ولكن الاستلقاء في السرير مريح . . لا أستطيع الجلوس على الطاولة للقراءة . . لا أرتاح كما أرتاح على السرير . . هنا يمكن للمرء أن يُمدْمِدَ يديه ورجليه ويرخي جسده ويتمطّى و . . و . . باختصار يصنع ما يشاء . . ولكن لأغيّر وضعيتي قليلاً . . هكذا، حسناً . . لست مستعداً لتغيير هذه العادة مهما اتُّهمت بالكسل، صحيح أنني أقضي كامل وقتي في القراءة، مستلقياً هكذا، بعد عودتي من العمل، ولكنني أرتاح في ذلك يا أخي . . إذن ماذا تريدون؟! حقاً غريب!!

إيه . . كتاب ممتاز . . أجل يا أخي . . إنها أزمة هذا العقل . . الذي حملناه على رؤوسنا على ما كان عليه منذ ألف عام . . واخترقنا به عصر الآلة والكومبيوتر . . لاهثين مكدودين . . نتخبّط يمنةً ويسرةً . . ونفغر أفواهنا من الدهشة . . لماذا لم يفهمنا العصر ونفهمه؟ . . لقد آن الأوان للخلاص من كل هذه الأوهام التي ملأت عقولنا طوال عقود . . أوهام، أوهام، أوهام . . يشرّحها هذا الكاتب بمهارة طبيب جرّاح يعرف مكمن الدّاء . . ينبغي أن ألخص الكتاب غداً . . يجب أن أنهض . . سأزور الياس . . أجل، لم أره منذ عدّة أيام، وهو صديق يُعتدّ به . . يا أخي جميل أن يكون للمرء صديق مثله . سنتناقش مطوّلاً في فحوى الكتاب . . لم يقرأه بعد . . ولكنني سأستعرضه له . . أعتقد

أنه سيوافقني على آرائي . . فهو نادراً ما يعارضني . . ممتاز هذا الصديق . . يمكنني الاسترسال معه بأفكاري حتىٰ النهاية . .

فلأنهض دونما كسل لأرتدي ثيابي . . أجل هكذا ، سأغلق آلة التسجيل . . كلا . كلا . . فلأتركها تصدح ريثما أكمل ارتداء ثيابي ، فيروز مريحة يا أخي ، مريحة جداً . . تكمل الجوّ الذي أعيشه وتعطيه انسجامه . . لدي خمسة وخمسون شريطاً لها ، كم أنا فخور بذلك . . لا أستمع لغيرها ، هي والموسيقىٰ الهادئة والكلاسّيك ، أجل ، يجب أن تعتاد آذاننا على تذوّق هذه الموسيقى الراقية . . بدلاً من طبلة فلان وزمّور فلانة وما لا أدري أيضاً ! ! زمن غريب . . كل شيء فيه يتراجع . . ولكنني حافظت على نفسي وموقعي جيداً . . إذا لم يمكنك التقدّم فلا أقلّ من الوقوف . . التراجع شيء مرعب . .

هه ! ها هي السترة العنابيّة . . كم هي أنيقة . . يا أخي الأناقة شيء جميل . . جميل ومطلوب . . يجب أن يعتني المرء بمظهره الخارجي ، وإلا ماذا إذن؟ أخي يلومني على ذلك ، لم يبق إلا هذا ! لا يفهم من الحياة شيئاً ويريد أن يتفلسف عليّ؟ ! اصطدمنا عدة مرّات ، وكنت أعنّفه بشدّة . . قال لا يمكنه أن يفهم كيف يقف إنسان جادّ مثلي ساعتين أمام المرآة ! هه؟ ! يظنني أجلس مع شبانٍ مراهقين أمثاله؟؟

لماذا تحضرني هذه الذكريات الآن؟ . . لقد مرّ عليها خمس سنوات كاملة ، خمس سنوات ! وذلك الغبيّ يقاطعني ولا يكلمني ، ويأتي إلىٰ دمشق فلا يزورني . . الغبي ! لا يعلم كم أحبّه ، ولكنني لا أستطيع السكوت على الخطأ ، أكثرت من تعنيفه . . يجب الاعتراف بذلك . . كم كان لطيفاً وودوداً دون سائر إخوتي . . وكم كانت علاقتنا حميميّة في البداية ، ثم خرّبها بسلوكه السمج . . سجلت له في يوم واحد خمسة أخطاء ، أذكر منها تلك الحلويات المغشوشة التي جلبها إلى البيت من محلٍ سيّء ، وعندما وبّخته ودللته على مكان آخر ، لم يستمع إليّ بل ألقىٰ بالحلويّات إلى القمامة؟ ! يا لطيش الصبيان ! !

ولكنني أنا الذي أوصلته إلى هذه الحالة ، لم يعد يقيم وزناً لفارق السن بيننا ، بعد أن اتّخذته مستودع أفكاري وأسراري . . أجلس معه طوال السهرة . بعد عودتي إلى المنزل ، لأحدّثه عمن قابلت وبمن التقيت وبماذا تحدّثت . . ثم تلك الليلة اللعينة . . لم يكن عليّ أن أبكي أمامه . . أنا في الجامعة وهو طفل في الإعدادية . . وحيدان في ذلك البيت الخرب في داريّا . . والليلة شتويّة ماطرة . . يومها بكيت من العوز . . بكيت بحرقة . . على مائدة الغداء وأمامي صحن البرغل . . اللعنة . . كان يغصّ من القهر . . اللعنة . . لا أريد تذكّر ذلك الحادث . .

كان كثير الحساسيّة . . يقرأ الشعر ويتذوّقه . . وأعتقد أنه كان يطمح إلى أن يكون شاعراً . . ولكنني وقفت له بالمرصاد . . لا يجوز التساهل في مثل هذه الأمور . . أنت متفوّق في دراستك فلتدرس الطب إذن؟ ! تحب أو لا تحب هذه مسألة أخرىٰ ! . أجل ، المسألة الأساسية هي إنقاذ وضع العائلة المتردّي ! . انتشالها من وهدة الفقر . . وفيما بعد ، فيما بعد ، يمكنك التفرّغ لما تريد . .

يا أخي ، الطبّ مهنة مربحة . . في هذه الأيام لا يعيش سوىٰ المهندس والطبيب . . هذا ما يقوله العوام ، وهو صحيح . . حتىٰ المهندس قُذف به إلى «المكبّ» ـ جميلة هذه «المكب» ! في مكانها تماماً ـ بقي الطبيب إذن . . صديقي عمر التنوخي . . كان معي في الدراسة . . وكنت متفوقاً عليه ـ كنت متفوّقاً على الجميع ! ـ درس الطب وغدا مليونيراً الآن ! دخله اليومي يتجاوز الألفي ليرة ! ! ممتاز يا أخي ! . . يستطيع المرء أن يتخلّص من ضغط الحياة . . أما أنا فقد أضعت طاقاتي في مغامرة فاشلة سلفاً . . كان يمكنني أن أصبح مثله ، بل وأحسن منه ، ولكنني سلكت درباً آخر . . وهذه حالتي الآن . الوحدة والخيبات المتلاحقة . .

مالي وللذكريات الآن . . فلأذهب إلى الياس إذاً . . وإذا كان قد جهّز نفسه لسهرة ما فلا بأس . . يمكن أن نسهر معاً . . سهرة متواضعة . . . على الأقل لمراجعة حسابات عام مضىٰ . . . إيه . . حسابات؟ ! سخف ! ! أية حسابات تلك التي يتعين عليّ مراجعتها؟ حسابات الخيبة والانهدام الذاتي؟ ! تأتي ليلة رأس السنة ولا أحد يدعوني لسهرة ما؟ مهزلة ! . . إلىٰ أين تسير بي حياتي يا ترىٰ؟ !

عسىٰ ألا أكون قد غفلت عن إغلاق النور . . سآخذ سيارة أجرة ضماناً للسرعة . . من غير المعقول هذا الازدحام في الباصات . . لا يمكنني احتمال ذلك . . تصارع هذا وتدافع ذاك ولا ينتهي المشوار إلا وروحك في الحضيض ، وقد بصقت عدة مرّات . . علىٰ كل شيء ، على الآخرين وعلى التخلّف وعلى نفسك أيضاً ! !

العمى؟! مشوار من شارع برزة إلى الطبالة بخمس عشرة ليرة؟! كيف يعيش المرء في هذا البلد؟ ربع راتبي يذهب تقريباً للتنقلاّت.. وربعه الثاني قسطاً للمنزل.. والباقي للأكل والكتب ومشاغل الحياة.. ويريدون منك أن تفكّر جيداً؟!. السفلة.. كيف؟ كيف أفكّر جيداً وأنا في هذه الحالة من اللهاث وراء الحياة؟.. أركض وأركض ولا ألحق بها! علبة الطون بعشر ليرات؟! وشوربة الماجي بتسع؟... وأنا لا زلت أكابر، لا أدري إلى متى؟! ولكن لا يمكنني التنازل.. وإلا خسرْت كل شيء.. سأبقى أقرأ وأملأ روحي بالثقافة والفكر وليفعل الآخرون ما يريدون.. أجل هكذا!.. لكلٍ جحيمه ولكلٍ فردوسه..

هذه الأزقّة اللعينة ألا تنتهي!. الذي أطلق اسم «الطبّالة» على هذا الحي لم يكن مخطئاً.. رغم ما يبدو على الناس هنا من أنهم يرقصون دون طبلٍ أو زمر.. هيء هيء.. ولكن عسى أجدك يا الياس، وإلا كان المشوار عبثاً..

كم تبدو البلاهة على وجوه الناس!.. كلّها وجوه كتيمة بليدة.. خالية من أيّ تعبير.. ترى هل يفكّرون بشيء؟ هل يدور شيء في هذه العقول الملغاة؟ لا أعتقد... رؤوس منخفضة وظهور محنيّة وعيون مطفأة.. إيه.. كم تغيّرت يا دمشق!.. مثل هؤلاء الناس ماذا بقي لهم؟.. لماذا يعيشون؟.. ولكن؟.. أنا أيضاً ماذا بقي لي، ولماذا أعيش؟... ما أسخف أن يقضي المرء حياته هكذا؟ دون أن تملأه قضيّة ما.. فكرة ما.. غاية ما؟! آه.. يا لنمط الحياة الآسيوي! أخيراً، هوذا البيت، فلأقرع الجرس.. أوه، لا أحد، سخف.. أين ذهب هذا الوغد؟ فلأعد إذن.. كان بودّي رؤية الياس هذا.. كنا سنسهر معاً.. وكنت سأحدّثه عن الكتاب.. ولكن لا بأس، فلأجرّب زيارة سليم في الشارع المجاور.. أيضاً سليم شاب جيّد.. جميل يا أخي أن يكون للمرء أكثر من صديق في حيٍ واحد!..

لكنني كنت أفضل رؤية الياس.. يا أخي الياس شاب متميز، عقلاني أولاً.. ومثقف ثانياً.. ونبيل ثالثاً.. وهذه صفات ما أندر وجودها في زمننا هذا!. ذهنه متوقّد دوماً.. لقد ربيّته على يدي.. أجل، وماذا في ذلك؟ أن تربّي امرءاً لكي تتخّذ منه صديقاً فيما بعد؟ يوم يعزّ الأصدقاء.. صحيح أنّه لم يخطر في بالي ـ عندما بدأت في توجيهه بعد الثانوية ـ إنه سيكون صديقي الأثير فيما بعد.. ولكن هكذا الحياة!! ـ كما يقول الفرنسيّون.. هكذا سارت بي وإلى هنا قادتني..

كنت أرعاه كي لا يضيع.. وجدت فيه خامة جيّدة وطاقة متفجّرة.. فوجهت هذه الطاقة في مسارها الصحيح كي لا تتبدّد كالبخار.. أنجز الهندسة في موعدها وها قد غدا الآن مهندساً ناجحاً.. علاقتي به ممتازة رغم فارق السنوات العشر بيننا.. ورغم كل الحساسيات التي دخلت علاقتنا.. خصوصاً في الفترة الأخيرة.. لا أعرف ماذا يدور في عقول هؤلاء الأطفال؟! غدا مهندساً وخطب تلك الفتاة الفلسطينية الجميلة ـ كم هي جميلة بشعرها الأسود الفاحم وعينيها الخضراوين كعيني زبيدة ثروت ـ فأصبح يريد هو الآخر أن يعاملني الند للند؟! نسي فجأة أفضالي عليه؟ نسي أنني أستاذه؟! نسي كم تعبت عليه بالأحاديث والنقاشات وانتقاء الكتب المناسبة لكل مرحلة من تطوّره الذهني؟ نسي أنني نقلته من مرحلة كان يبكي فيها كطفل صغير إذا أزعجه خبرٌ ما.. إلى مرحلة غدا فيها شاباً مكتمل النضج؟!.. غريب يا أخي!! ماذا يحصل لهؤلاء الناس؟!.. حتى الأصدقاء الحميمون دخلت الحساسيات بينهم؟!.. نسي أنني فضّلته على أخي الأصغر؟. أجل.. وماذا يعني هذا؟.. وماذا إذا كان أخي؟.. إلى متى سيبقى نظام القرابة يكبلنا بقيوده؟. أخ أو غير أخ ليس مهماً.. المهم هو البنية النفسية والعقلية... وأنا وجدت إلياس متقدّماً على أخي.. فآثرته عليه.. أبقيته إلى جانبي وتركت ذاك الطائش يذهب إلى اللاذقيّة... ليدبّر نفسه بنفسه.. هل سأحمله على أكتافي؟ يريد أن يكون نزقاً معي فليكن.. سيرى العاقبة بنفسه.. يجب أن يعلم أفضالي عليه.. أجل.. وإلا ماذا إذن؟!

ترى كيف يعيش ذلك النزق؟.. أين يسكن وماذا يأكل ومن يعاشر؟.. ولكن لا بأس.. ستعجنه الحياة وتعلّمه كيف يكون متماسكاً أكثر.. وجاداً أكثر.. فالجانب الوجداني في شخصيّته يطغى على الجوانب الأخرى.. وهذا ما يزعجني فيه.. العمى؟! يبكي من قصيدة ويريد أن يثرثر في السياسة؟! أقول له افهم يا بني آدم.. انظر إلى نفسك وراجعها جيداً وتعلّم ماذا تريد من الحياة؟! حدّد هدفك جيّداً وسر إليه، لا يقتنع!! يجيبني: أنت لا تصلح لدور الواعظ؟!.. العرص؟ قال أنا لا أصلح لدور الواعظ!! أنا!! الحق عليّ والله.. من الخطأ إعطاء الحريّة لمن لا يستأهلها..

... أعترف أنني المخطىء الأول.. يجب الاعتراف بذلك، أجل.. أنا الذي جعلته يتفتّح على جوانب الحياة

باكراً غدا أنضج من سنّه بكثير. . وصعب عليه التأقلم مع أترابه ومحيطه. . ومن هنا بدأت أزمته. . الوعي المبكّر هنا مشكلة حقيقيّة. . ربّما كان في دول أخرى امتيازاً، وسبقاً للزمن في سبيل النجاح. . ولكنه هنا ليس أكثر من تفريغ للعقد والأزمات، التي تتأصل في النفس مع الزمن، . . أحياناً أشعر بالذنب والمسؤولية تجاهه. ألم أكن أنا الذي وجّهته في هذا الطريق؟ ألم يكن من الأفضل تركه لتفوّقه الدراسي والاجتماعي؟ . . ولكن ما ذنبي أنا؟ إذا كانت المرحلة هكذا!! حتىٰ أنا لم أكن واعياً لهذا المسار. . . وقد وقعت في المطب قبله. . ماذا إذا كان كل شيء يسير إلى الخلف؟ . . إذا كان مقياس النجاح والسعادة هو امتلاك البيت والسيارة والفيديو والتلفزيون؟ . . إذا كان المواطن العربي يبحث عن ثقب يدفن رأسه فيه! . . كما قال أحدهم يوماً. .

أتذكر الآن جيداً. . احتفلنا معاً بهذا اليوم في العام ٩٧٦، لأول مرة. . كنت في الجامعة يومها. . كم يبدو الفرق شاسعاً بين ذلك اليوم وهذا اليوم. . كأن بينهما قروناً؟! . .

عشر سنوات. . عشر سنوات فقط. . ولكن كم من الانهدامات. . كم من التراجعات؟ . . لم يبق مني سوىٰ الحطام كم كنت متألقاً. . وكم كانت الثقة تملأني والطموح يتواثب بين ضلوعي. . كنت أقود الأحاديث وحلقات النقاش في الجامعة وفي الحي. . وألتقي بمثقفي العاصمة وأنا في السنة الأولى حقوق! . . .

ترىٰ أين بدأ العطب؟ هل يكمن في خروجنا من داريّا، ذلك الحيّ الشعبي البسيط بأزقّته الموحلة وبيوته الطينيّة. . إلى هذه الأبنية المسبقة الصنع؟ . . أم هو في بنيتنا الريفية الأصلية. . التي لم تترك فينا سوىٰ الهشاشة والخواء والخوف من المدينة ورعب المدنية؟ . . رغم أنني قطعت جذوري تلك. . ولم أعد لقريتي الساحلية منذ سنوات لم أعد أذكرها. . ولكن يبدو أنها بقيت فينا. . تقودنا في مسارات الحياة المتشعّبة. . مخلّفة فينا الرعب والخوف وإحساس الوحدة الذي لا يرتوي. .

هذا هو بيت سليم أخيراً. . النافذة مظلمة. . أيضاً ليس هنا! الرذل ليس هنا! أين هم الأصدقاء؟ فلأعد إذن، ولأسلك من جديد هذه الأزقة. .

لست آسفاً لعدم مشاهدتي سليم هذا. . لم أكن سأسرّ به كثيراً. . شاب خجول وطيّب كثيراً. . طيبته هذه ستسحقه. . يا أخي ماذا تفعل في دمشق؟! . . كم أمقت طيبة هؤلاء السذّج. . الطيبة سخف. . سخف مطلق، أفضّل الياس، هذا شاب يعرف كيف يصنع قدره. .

أوه. . كلا كلا، يجب أن أحافظ على هدوئي، لا ينبغي عليّ تحريك سبابتي هكذا في وسط الشارع، . . سيظنّ الناس أنني مخبول. . هذا ما كان ينقصني. . أسير في الشوارع مكلّماً نفسي!! يجب أن أبقى محافظاً على هدوئي واتزاني. .

من أين يأتي هذا القلق كلّه وهذا الاضطراب؟ . . دماغي لا يهدأ لحظة واحدة! . هذا المحرّك اللعين لا يتوقّف عن دورانه أبداً. . سأصاب بالصرع على هذه الحال. . فلأعد إلى منزلي الآن. . لا أريد البحث من جديد عن صديق. . لم يعد ثمّة أصدقاء. .

يا للتفاهة. . ليلة رأس السنة أقضيها وحيداً! أستقبل العام الجديد وحيداً! دون صديق؟! دون امرأة! دون أخ. . إلى هنا وصلت؟! أنا الذي كنت أدخل مئات البيوت في دمشق هذه. . ابتعدت عن الحياة إلى هذه الدرجة؟! . .

في الخامسة والثلاثين ولا شيء في الأفق. . لم يبق شيء. . حطام وغبار. . غدونا حطام الحياة. . وعلى ما يبدو فإن مشوار العمر سيكون خائباً، وهذا ما يرعبني. . كيف أواجه تلك الأم الحزينة؟ . . لا أستطيع رؤيتها. . ولا أتحمل عذابها. . وهي تظنني قاسياً معها وتبكي قهراً لذلك. . يا الله لو تفهمني. . إنها لا تفهمني. . لا أحد يفهمني. . قابعة في ضيعتها البعيدة تنتظر. . وتحلم، وتبني الأوهام. . تغسل حلمها بدموعها السخيّة كي يبدو ألقاً وساطعاً. . تظن ابنها وزيراً في المدينة. . ولا تعلم حجم الخيبات، والجراح، وعتق السنين. . بف. . قذارة. . تفو. اللعنة، ليلة رأس السنة ولا صديق، أيّها العالم القذر. . أيتها الحياة المرذولة. . كلا. . كلا. . يجب ألا أحرّك يديّ هكذا، فلأعد إلى منزلي. . سأسهر لوحدي. . وماذا في الأمر؟ . . الكثيرون يسهرون لوحدهم هذه الليلة، في كل مدن هذا العالم الشاحب. . ينبغي أن أكون قوياً. . أمام نفسي علىٰ الأقل. . فلأنزل إلى السوق لأبتاع طعاماً ونبيذاً. . سآخذ سيارة للمرّة الرابعة هذا النهار. . ولكن لا بأس. لماذا تعاكسني الحياة إلى هذه الدرجة يا ترىٰ؟. هل حجم أخطائي كبير هكذا؟ . . لا أعتقد. . مشكلتي أنني أكبر

من زمني . . وهذه هي آفتي الحقيقيّة . . أنا الذي كنت أدير حلقات النقاش في الثانوية . . أنا الذي حجمت المسؤول الحزبي في قريتي . . وكنت في العشرين وكان في الأربعين . . . أنا الذي جلست في حوار مع عميد كليّة الآداب حول قضيّة التراث لمدة ست ساعات . . في سنتي الجامعية الأولى . . . أنا الذي كنت استقطب الشبّان من حولي كزعيم حقيقي . . . أنا . . .

سخف ، مالي ولهذه الأفكار ، إذا استمرّت الحساسية بيني وبين مديري في التلفزيون ، فمن الممكن أن أتعرّض للنقل من عملي . . لا يمكن وجود رأسين في غرفة واحدة . . الجميع يتزلفون له ويتوددون له عداي . . . لا يمكنني ذلك . . هو الذي يجب أن يتودّد لي لا أنا . . إنّني أفوقه وعياً وثقافة وتجربة . . أتحدّاه أن يذكر لي عناوين خمسة كتب في الأسواق؟! خمسة فقط!! . . وليكن موضعها ما يشاء؟! . . يا للشيطان كم هو ضحل! . . ومع ذلك يسلّمونه القسم الثقافي بأكمله . . وأكون أنا مرؤوسه . . فقط لأنه مسنود الظهر ، يتكىء على أقربائه ، في الجيش . . ويريد أن يذلّني السافل . . لم يبق إلا هذا . . الوغد عندما يكون الخبر مهماً لا يجد من يحرّره سواي . . ومع ذلك يتآمر عليّ . .

إنني الآن موظف صغير . . فشل أن يكون كبيراً . . يوم بدأت العمل قلت لا بأس ، التلفزيون ليس بمستوى طموحي ولكن لا بأس . . الإنسان لا يصعد دفعة واحدة . . بل خطوة خطوة . . درجة درجة . . ومسيرة ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة . . أليس هذا ما تعلّمناه من أيام ثرثراتنا تلك؟ . . ثم إن الرئيس اللبناني أمين الجميّل بدأ حياته مذيعاً تلفزيونياً! . . إذن ، فلنجرّب . .

ها هي الصالحية ، فلأنزل هنا . . زحام . . زحام هائل . . إلى أين يذهب كل هؤلاء الناس . . وما الذي يبغونه؟ أية معانٍ تحملها هذه العيون الباهتة والمحقونة والدامعة؟ . . يتفرّجون على بعضهم وعلى الواجهات المضاءة ببلاهة ثم يواصلون سيرهم على امتداد الشارع ، . ترىٰ بماذا يفكّرون خلال مشوارهم الطويل؟ . . هل يكتفون فقط بالفرجة على واجهات المحال والسينما والنوادي؟! هل يتأمّلون جمال عاصمتهم؟ . . ما الذي يحقّقه هؤلاء الأغبياء من نزهتهم اليومية هذه؟! هل يقذفون بهمومهم على العابرين مثلهم وعلى واجهات المحالّ؟ . . هل يبحثون عن عزاء ما يجدونه في الآخرين الذين يماثلونهم في نمط العيش؟ أم أنّه لا بد من الخروج من المنزل في هذه الساعة ، ولو كان للاّهدف . . وللامكان؟ . . لا أعرف . . لم أعد أستطيع التفكير جيّداً كالسابق . .

ضجيج . . ضجيج . . أليس لهذا الضجيج من نهاية؟ . . لا أحب الزحام . . أفضل الشوارع الخالية والأجواء الهادئة . . ولكن ما لي كئيب هكذا؟! . . أستطيع أن أتصوّر سحنتي الآن ، كآبة وتحبهم قاتلين . . يجب أن أبدو بشوشاً بعض الشيء . . كيلا تفضحني سحنتي الكامدة إذا قابلت وجهاً أعرفه . . هه! . . لم أكمل جملتي بعد ، ها هو نبيل قادم! . يا الله! . منذ سنوات . . سنوات طويلة لم أره . . ها هو يقترب . . أوه . . جميل يا أخي أن يلتقي الإنسان بأصدقائه القدامى . . لم يلمحني بعد . . سأخذ بعضنا عناقاً وقبلاً . . فللقدامىٰ دوماً نكهتهم العبقة . . لقد لمحني . . لا بد أن . . العمىٰ . . يا للسخف! . . إنه يدير وجهه! . . العرص؟! لمحني فأدار وجهه بسرعة؟! تظاهر بأنه لم يرني! يتأمّل واجهة النوفوتيه؟ حسناً . . لن أسلّم عليه . . لَهْ يا وغد! يا سافل!! ماذا حصل للناس؟! . . انظروا الوغد . . لقد نظر نظرة خاطفة ، ولكنّها كانت كافية لرؤيتي . . أدار وجهه بسرعة . . نسي كل شيء . . نسي داريّا وأيامها وأحاديثها . . نسي ذكريات الدراسة المشتركة . . نسي كيف وقف مشدوهاً أمامي . يوم قدّمت له ، طوال ساعات أربع . . تحليلاً شاملاً للثورة الإيرانية . . وكيف تنبّأت له بالمصير الذي آلت إليه قبل أن يحدث هذا! أجل قبل أن يحدث! وإلا ماذا إذن؟! يا للساقط الآخر . . نبيل هذا . . مثال . . مثال آخر على الصداقة المستحيلة . . مزبلة حقيقية ، آه . . آه . أين بدأ العطب؟ . . ولكن الجواب سهل . . لماذا أهرب منه؟ أعماقي تنطق به ولساني يتعثر في لفظه . . إنها رجاء ، أجل ، هي وليس من سواها ، سبب شقائي وبلائي كله . . بداية هزيمتي الحقيقيّة كان خروج رجاء مني . . فضلّت عليّ ضابطاً في الجيش؟! سقطت هي الأخرىٰ!! العمىٰ!! لماذا يسقط الناس بهذه السهولة؟! . . لماذا لا تجد المرأة التي تذهب معك إلى نهاية الشوط؟!

آه يا رجاء . . أين دفؤك الآن يحميني من صقيع كانون وصقيع دمشق؟ . . أين صدرك الحاني ألقي عليه تعب العمر وخيباته؟ لم أكن أعلم . . لم أكن أعلم أنه نجاحي معك هو امتحاني الأكبر . . هو مفتاح نجاحي في الحياة . . تعلّمت الدرس متأخراً . . أفلتُّها من يدي . . أجل . . أنا الذي أفلتُّها . . بقيتْ متمسّكة بي حتىٰ اللحظة الأخيرة . . وأنا الذي

تقاعست، كنت متألّقاً يومها.. شاب جامعي طموح ومثقّف. لهُ أصدقاء يُعتدُّ بهم وله حضوره في أي مجلس.. كان فيّ كل مواصفات الشاب الناجح.. وكان من السهل عليّ الحصول على إمرأة تناسبني.. ولكن يومها. لم تكن المرأة تعني لي الكثير. كنت أخوض معاركي الجدّية التي لا مكان فيها للعواطف والتنهدات.. كنت أرىٰ في هذه الوجدانيات ميوعة فارغة!

كم كانت وفيّة؟ كم كانت دافئة! تحنو عليّ كأم.. ولا تقاطعني عندما أتحدّث إلا لتؤكد على كلامي.. أجل. كنت أجلس ساعات طويلة أحدّثها وأناقش معها الأخبار، ومواضيع الكتب وأمورنا العامة، وأفتح أمام ذهنها المغلق آفاقاً رحبة.. كانت تستمع إليّ بإعجاب واندهاش من مقدرتي الفائقة على الاسترسال في الحديث، ومتابعة أفكاري إلى نهاياتها المنطقيّة..

يا لتلك الأيام.. ذهبت الآن، كما ذهب كل ما هو مضيء فينا، ولكن... رجاء، خسارتي الكبرىٰ، كانت بالنسبة لي «تحويشة العمر» كما يقول الشوام..

عاملتُها بقسوة، يجب الاعتراف بذلك، أجل، كنت أدقّق في سلوكها وأحاسيسها على كل غلطة ـ كما فعلتُ مع أخي ـ وبالنتيجة خسرتها كما خسرتُ أخي.. لماذا أنا صارمٌ لهذه الدرجة؟!.. لماذا لا أستطيع تفهّم سلوك الناس العاديين؟! لماذا أطالب الجميع بالتميّز، بالدّقة، بالجدّية؟! لماذا لا أدعهم يعيشون حياتهم كما يريدون؟!.. لقد واجهني الياس مرّة بذلك عندما كنت ألفت انتباهه إلى خطأ ضحكته المجلجلة على الشرفة آخر الليل.. انتفض في وجهي زاعقاً، للمرة الأولى:

ـ يا أخي حلّ عنيّ، هل تريد من الناس جميعاً أن يكونوا أنبياء مثلك؟ عظماء مثلك؟ زعماء مثلك؟! كانت المرّة الأولىٰ التي يخاطبني فيها بهذه اللهجة، افترقنا يومها مختلفين، واستمرّ خلافنا فترة، ثم عاد إليّ.. ولكنهُ كان محقاً.. أنا نبيّ فعلاً.. نبيّ في زمن لا يحتاج أنبياء.. بل يغتال الأنبياء... هذا الوصف جميل، نبي،.. ولكن.. اللعنة. إنه تعزية ليس إلا، إن أنا إلاّ نبيٌ فاشل. نبيٌ منبوذ، لأقلها بصراحة..

إلى أين تمضي بي هذه الدرب؟.. أين تسيرين بي أيتها الحياة؟ كل زملائي شقّوا دربهم أحسن مني، هؤلاء الذين كانت صداقتهم لي طموحاً بالنسبة إليهم فيما مضىٰ!.. وماذا أنا الآن؟.. موظف عادي من الدرجة الخامسة، زملائي يقفزون من أمامي ومن خلفي صاعدين السلّم الوظيفي وأنا قابعٌ أجترّ آلامي..

الصحافة!!.. كانت توقي مذ كنت طفلاً في الصفوف الابتدائية الأولى.. أجل.. عندما راجعت ـ منذ عامين ـ تلك الأوراق والدفاتر المدرسية القديمة التي تحتفظ لي بها أمي ـ ويا لتلك الأم ـ أحسست بقلبي ينشطر نصفين وطفرت الدموع من عيني وأنا أرىٰ بين تلك الأوراق الصفراء، رسالة صغيرة إلى خالي صالح، ذيّلتها باسمي وتحت الاسم كتبت بلون أحمر فاقع: الصحفي الثائر!.

بف!.. مسارات غريبة تقودنا في دياجير الحياة!.. من ذا الذي يستطيع التنبؤ بهذه المسارات؟ الصحفي الثائر!! هه! أين أصبح الآن؟.. لم أكن أعلم أن هذه المهنة الساطعة يمكن أن تحمل، كغيرها، كل الابتذال في زمن ما!.. كنت طفلاً يفتح عينيه بدهشة على الحياة.. كنت أقرأ مقالات محمد حسنين هيكل في الأهرام وأنتشي بها.. ويملأني الطموح.. قلت لماذا لا أكون مثله؟! لم أقدّر أننا لسنا في مصر وأن ذلك الزمان بخير..

أخيراً، هوذا مخزن الإخاء، فلأدخُله، هؤلاء الشوام يتفنّنون بالأسماء، كما يتفنّنون بكل شيء يمتُّ إلى المال بصلة، التاجر منهم يتودّد إليك والابتسامة تملأ شفتيه ويقسم لك بأغلظ الأيمان أنّه يبيعك بالخسارة! يمكنه أن يسرق منك مليون ليرة وتخرج راضياً من مخزنه، متوهّماً أنّك أنت الذي سرقته!!.

حسناً!.. وها هو بائع اليانصيب على مدخل المخزن.. جميل أنني التقيته.. لأشترِ بطاقة إذاً.. كلا كلا.. فلأشتر اثنتين.. لعل وعسىٰ!.. من يدري؟ جائزة هذا العام مليونا ليرة. تنفع!.. ولكن! ماذا المليونا ليرة في دمشق؟! إذا كان ثمن الشقّة في المزّة يفوق المليونين! وفي أبو رمّانة يفوق الخمسة! وفي الفيلات أضعاف؟! إن هذه المليوني ليرة ستكون عاجزة عن تأمين شقّة محترمة في حيّ محترم في دمشق؟!

القنّ الذي أسكنه يسمونّه بيتاً!! غرفة كبيرة وثانية أصغر، والثانية لا تتسّع لأكثر من سرير وطاولة وخزانة صغيرة!.. آه لو كان لديّ ثلاث غرفٌ وصالة!.. لكان إذاً بيتاً مريحاً ومعقولاً!.. ثلاث غرف وصالة.. أجل، الصالة لاستقبال

الأصدقاء . . طقم من الأثاث الأنيق، والبسيط . . فلا داعي للترف الزائد . . وغرفة للنوم، ولتكن عاديّة أيضاً ! . . وأخرىٰ للطعام، ويمكن استعمالها لأستقبال الضيوف الوافدين . . أما الثالثة فهي غرفتي الخاصّة، سأنظّمها جيداً، يجب أن يكون لها طابع جاد ورصين . . وإلا ماذا إذن؟ ! سأفصّل لها مكتبة فخمة من طراز رفيع، أجل، وهل هذا كثير؟ ! ما معنىٰ مثقّف إذا لم يكن لديه مكتبة تؤوي كتبه؟ . . ثم يجب أن يكون لديّ مكتب أنيق وواسع . . أستخدمه للبحث والكتابة . . عندها سأبدأ حياتي الحقيقيّة . . وعندها سيعرف هذا البلد اللعين من أنا ! ! . .

سأضع في الغرفة آلة تسجيل . . وأقرأ على أنغام الموسيقى . . جوّ مريحٌ يا أخي . . وسألغي عادة القراءة في السرير . . فعلاً إنّها تشتّت الذهن وتبلّد الجسم . . . وتبعاً لذلك ستلغىٰ تلقائياً، عادة مداعبة أظافري وتنظيفها باستمرار فهي مرتبطة بالسرّير ! ! .

ثم هناك التلفزيون الملوّن . . سأضعه في غرفة الاستقبال . . يمكن أحياناً تحقيق بعض المتعة فيه . . والفيديو . . آه أجل ! . . لماذا لا يكون لديّ فيديو؟ ! . . بيت عصري وجميل يجب أن يحوي فيديو . أجل ! الفيديو إنجاز حضاري رائع، سأشتري فيديو . . وسأجلب أفلاماً جادّة . . سأضعه في غرفة النوم . . وسأ . . .

العمىٰ، كان يدهسني هذا السافل؟ ! . . أيها الوغد ! يا رذل ! لم يبق إلا هذا ! ؟ . . يتزاحمون علىٰ هذا الجسد الضعيف ! . . يجب أن أنتبه جيداً . . لأصعد إلى الرصيف . . إيه، لو كانت لديّ سيارة . . كم كانت ستحلّ لي من مشاكل . . السيارة ممتازة . . تؤمّنّ للمرء حريّة التنقّل والسفر ! . وتختصر كثيراً من الوقت . . يجب أن أفكر في الأمر ! .

بف ! مالي مسترسل هكذا في أحلام يقظتي؟ . . أحلام، أحلام . . طوال حياتي كنت حالماً . . وربّما كان هذا سبب مآزقي . . أحلم بالبيت والسيارّة وأنا موظّف عادي راتبي لا يتجاوز الثلاثة آلاف ليرة ! . . آكل في مطاعم البلد وأتنقل بالتاكسي وأشتري الكتب والمجلاّت و . . . وبنتيجته ينتهي الشهر وليس في الجيب إلا بقايا من بقاياه . .

أخيراً، هوذا الأوتستراد . . مقفر مثل أعماقي . . الشوارع الخالية تريحني رغم إحساس الوحدة الموحش . . بل ربما بسبب هذا الإحساس اللذيذ . . ترىٰ ! ماذا تحمل لي يا شارع الخراب؟ ! . . ما الذي تخبّئه بين طيّاتك الدفينة لمغترب وحيد مثلي . . حكم عليّ بمعاشرتك طويلاً؟ . . وبالتصبّح بمرأىٰ وجهك الكريم كل يوم . . وقد تكون أوّل من أصادفه في الصباح وآخر من أودّعه في المساء ! . . ترىٰ ! لو بقيت في داريّا ألم يكن أفضل لي؟ حارة شعبية أجل . . أناسها سذّج ومتخلفون أجل . . ولكنّها كانت تعطيني إحساساً بالأمان ! . . فعلاً ! ! كنت أحس بالأمان في تلك الحارة . . رغم الوحدة والغربة . . ترىٰ ألم يبدأ الشرخ عندما خرجنا من عالمنا ذاك . . عالمنا البسيط والشفّاف؟ . يا للسخرية . . شعرت يومها بسعادة غامرة ! . . ظننت نفسي قادماً لأبني أمجاداً هنا ! . . حيث الشهرة والأضواء وأصول التعامل اليومي بين الناس . . قلت لنفسي «طبقة متوسطة أجل ! . . ولكنها أفضل من أناس ذلك الحيّ الشعبي المتخلّف؟ ! . . » ظننت نفسي خرجت من وهدة التخلف إلى العالم الأرحب ! . . مهزلة ! . . أحلام معطوبة ! . . التخلّف هنا وهناك . .

ثم . . هذا الشارع الطويل الطويل . . أما آن له أن ينتهي بي؟ . . العمارات العالية تتسابق على جانبيه متسلسلة مثل حبّات السبحة الفوسفورية . . والمصابيح المتوهّجة الصفراء تنيره ناشرة بقعها الكابية على الرصيف . . ثم هذا البرد . . آخ من هذا البرد . . برد من الخارج وبرد من الداخل . . وجسدي النحيل يتفتّت بينهما . . وحياتي تضيع . . كنبع تذهب مياهه إلى أرض صخرية جرداء . . ولم يبق شيء .

أخيراً، هوذا القن البائس، مساء الخير أيها القبر ! . . مساء الخير أيها الصمت . . أيها الغبار . . أليس ثمة صرصور ألقي عليه تحيّة المساء أيضاً . . وأتركه يعبث في الممرّات كي يسلّيني؟ . . إيه . . فلأجهزّ الطاولة إذن . . طاولة بسيطة ومتواضعة . . فقط نبيذ ولحم بقر وتفاح وبرتقال . . مع زيتون وجبنة ولبنة . .

سأستلقي على السرير . . يمكنني وضع الطاولة إلى جانب السرير والاسترخاء هكذا . . أجل . . مريح هذا السرير . . وهذه الغرفة تشعرني بأمان أكثر من الخارج . . أُغلق الباب وأترك فيروز تصدح . . وأجلس ساعات طويلة للقراءة . .

يجب أن أقلّل من الخروج إذا لم يكن ثمّة داعٍ لذلك . . والذي يودّ رؤيتي ليشرّفني هنا . . أجل . . الأوغاد . . لا أحد في بيته ! الأنذال ! لا أحد في بيته ! . . لا أحد يسأل

عليك! . . كل منهم غافل عنك وراء متعه الصغيرة التافهة! . . أقضي سهرة رأس السنّة وحيداً في غرفتي القميئة هذه . . وهم يسهرون مع فتياتهم ونسائهم . . وجيوبهم متخمة بالمال! . . وفيما بعد، بعد أن ينتهي كل شيء . . يأتون ليستعيروا كتبي ويجلسون أمامي بخشوع طالبين تحليلاً للخلافات الفلسطينية والأزمة اللبنانية والحرب العراقية الإيرانية وأزمة العقل العربي . . وما لا أدري أيضاً! . .

سفلة! . . لا أصدقاء في هذا الزمان . . لا صديق ولا صادق . . كنت أردّد يوماً أن الصادق طفل مات أو طفل لم يولد بعد . . أجل، كثيراً ما قلت ذلك، وها هي الأيام تؤكد صحة استنتاجي، وإلا ماذا إذن؟! . . . أنا لا أريد أصدقاء . . وماذا في ذلك؟ سأصادق كتبي . . إنها لا تخونني . . سأقرأها جميعاً . . سأقرأ عشر ساعات في اليوم . . سأقرأها كلها . . كلها، سأنحتها نحتاً، وسألخّص الجيد منها . . . ولكنّ ذهني بدأ يتعب من القراءات الجادّة . . أطنان من الكتب حشوتها في دماغي الضئيل . . فلأحاول الاهتمام بالأدب . . لقد أهملته زمناً طويلاً . . كنت أظن قراءة الأدب مضيعة للوقت وترفاً لا مسوّغ له!! . . ليتني أوليتها حقّها منذ البداية . . إذن لكنت تعلّمت الكثير ممّا لم تعلّمني إياه الحياة . . سأقرأ دوستويفسكي . . لدي أعماله الكاملة . . كلّفتني أكثر من ألف ليرة . . وأعتقد أنها مناسبة لحالتي الراهنة . . لرجل وحيد ودون أصدقاء ومتخم بالخيبات . . ستستغرق منيّ وقتاً، تسعة عشر مجلداً، هم م م م . . . ، تحتاج لشهر ونصف . . أجل . . شهر ونصف يكفي لإنجاز هذا المشروع .

إيه . . الميماس صنف جيّد . . أفضل نبيذ سوري . . اعتدتُ عليه منذ زمن ولا أحبّ تغييره . . كأس كل مساء . . مريح يا أخي . . يجب أن يبقىٰ هذا الصنف متوفّراً دوماً في المنزل . . أشعر بخدرٍ لذيذ يسربل جسمي، النبيذ حقاً ملك الشتاء . . ولكن هذا الإحساس العميق بالبرد الداخلي يعكّر صفو إحساسي بالجمال . . آه يا رجاء، أنت مقتلي . . لماذا يتأخرّ الإنسان هكذا في تعلّم دروس الحياة؟ . . يوم كانت معي لم أكن راضياً . . كنت أظن اختياري سيّئاً! . . والآن . . آه لو تعودين . . . كانت تجثو أمامي وتقول باكية : كن لي يا حبيبي . . لي أنا فقط! . . ولم أكن أبالي بها، وهأنذا أحصد ما زرعته . . لم يبق منها سوىٰ هذه الصورة المعلّقة على رفّ المكتبة . . يا لعينيك الخضراوين . . أوه، هذا الإشعاع الفظيع فيهما يشرح قلبي، يذكّرني بمروج الربيع في قريتي البعيدة . . حيث تكرج العصافير وتصدح الأغاني . . كم كانت دافئة وطرية . . تطوّقني وتغمرني بالقبل كأنني طفلها . . تناغيني وتدلّلني وتحضر لي القهوة والطعام حتى سريري . . بينما أكون منهمكاً في قراءاتي . . كم كانت حريصة على إرضائي؟ في كل حركة . . في كل لفتة . . كانت تحسب لي حساباً . . تعلم ما سيكون ردّ فعلي على هذا التصرّف أو ذاك، كم تحمّلت في سبيلي . . كم مرّة أتتني والبقع الزرقاء تملأ جسدها . . كم كان أبوها يعذّبها كي تهجرني، كان يريد تزويجها من ضابط أمن مثله . . فكيف يقبل بشاب متسكّع ـ هكذا سمّاني الوغد ـ لا مستقبل له ويثرثر في أحاديث لا تجلب سوىٰ الخراب!! .

عارض بشدّة . . وصلت به حدّ ملاحقتنا في شوارع دمشق، بسيّارته البيجو . . وفي ذلك اليوم، كاذ يدعسنا أمام كلّية الحقوق، عند المنعطف، جنّ جنونه عندما رآنا معاً، ولو لم تنتبه هي في اللحظة المناسبة لدعسنا، مؤكد كان سيفعل . . لكننا احتمينا بالكشك القائم على زاوية الرصيف فنجونا، ولم يكتف بذلك؟ بل نزل من السيارة و . . . صفعني .

العرص! . كانت تلك أكبر طعنة لكرامتي في حياتي كلّها، تفو! صفعني الكلب، وهدّدني بالقتل إذا رآني معها ثانية . . ثم لفّ شعرها على يده وجرّها إلى سيّارته . . أحسست بنفسي كالصرصار ـ أمام الطلبة الذين اجتمعوا حولي ليعرفوا ما حدث . . .

بعدها انفصلنا . . قلت لها : حسناً، إنني لا أتشرّف إطلاقاً بمصاهرة هذا الوغد، أبيك . قالت ـ تصوّروا : ـ خذني إلى بيت أهلك في بانياس وسأبقىٰ عندهم حتى تنهي دراستك، ولن يعرف والدي بمكاني . لم أوافق؟! كابرت! كنت أعامل أهلي بترفّع وأمارس عليهم نرجسيتي القذرة، وكانوا يصدقون هذا الترفّع ويخافون تلك النرجسيّة، ويتعاملون معي بخوف ورهبة . . أنا الذي فرضت هذه الطريقة في التعامل . ولكن . . ألم أكن محقاً؟ ألا يجب أن يكون البيت منضبطاً؟ هل سأقبل بالميوعة في بيتي، أنا الذي أحاربها في المجتمع؟ كلا! أنا الأخ الأكبر ويجب أن تكون لي رهبتي في المنزل، أجل، لا يمكن . . لا يمكن تقبّل الميوعة التي يسمّونها بساطة وأريحيّة وما لا أدري أيضاً! . . وإلا انفرط شمل الأسرة . لذا يجب ضبطها بيد من حديد، وإلا ماذا إذن؟

ثم إنها هي لم تكن قويّة كما يجب، كنت أبحث عن الفتاة القوية التي لا تحمّلني أعباء الحياة والمعيشة.. ولا يمكنني القبول بفتاة تقليدية.. وهي كانت تقليدية في الكثير من سلوكها اليومي.. وصلت إلى منتصف الطريق ووقفت ـ دوماً يصلن إلى منتصف الطريق وتقفين ! ـ رأت المسار الطويل فارتعدت بهلع.. كانت تخاف من أبيها ومن المجتمع رغم تظاهرها بالعكس.. وأنا لا أريد فتاة خائفة.. وديعة وبسيطة وأنا أريدها قوية وشامخلة مثلي.. وإلا فلا؟! جميل والله!!

إيه.. كأس أخرىٰ من هذا النبيذ الجارح.. إلى متىٰ سأبقىٰ أكابر وأنا متهدّم هكذا؟.. آه لو تعودين الآن يا رجاء.. وأنت أيّها الأخ العاق والنزق.. أحبك.. أحبّك يا عرص!. ولكنّك لا تدري.. ولن تدري.. أيها الغبي!. لن تسمعها منّي ولو على فراش الموت.. لا يمكنني أن أبوح لك بذلك.. تظن أنني جلفٌ معك.. ولكن هكذا طبيعتي يا أبله!. لا يمكن أن تراني باسماً ضاحكاً في وجهك. لا يمكن!.. بيننا كل سني العذاب وكل المشوار الخائب.. كل سنوات الجمر تحرق قلبي فيلتهب لرؤيتك. لهذا أعاملك بصرامة وجدية.. لو تباسطت معك لطفرت الدموع من عيني فوراً، ولَعَادَتْ كل تلك الذكريات وعصرتْ قلبي النازف، وتفجرذت من جديد في أعماقي نازعة غشاء النسيان الرقيق، الذي تعبت كل هذه السنوات لتغليفها به.

ماذا فعلتُ بكل تلك الكتب التي قرأتها بتلذذ وظمأ؟! أطنان من الورق حشوتها في دماغي عبثاً!! لو بدأت بالكتابة مبكراً أين كنت الآن؟ ولكنني كنت خائفاً، خائفاً من القلم، للكلمة قدسيّتها عندي.. قلت فلأختمر أولاً.. ولأتشرّب من ينابيع الثقافة بحقولها الثرّة.. ومن ثم تنتج العصارة.. وها هي السنوات تمضي والأيام تعبر ولا إنتاج ولا من ينتجون!.. الأفكار تتبخّر من ذهني كالرذاذ المتطاير. أيضاً كان هذا الحساب خاطئاً كحساباتي الأخرىٰ...

ولكن.. إلى متىٰ سأبقىٰ أعذب نفسي هكذا؟ إلى متىٰ سيبقىٰ الندم يتآكلني؟! ألا يمكن البدء من جديد؟ أجل.. يجب المحاولة ثانية.. يجب الانطلاق مجدّداً.. شجرة الحياة تبقىٰ خضراء كما يقال.. يجب الإمساك بالمستقبل قبل أن يفلت نهائياً من قبضتي، وإلا ماذا إذن؟

أشعر بخمول.. أوه.. هذا النبيذ اللعين فعل فعله معي.. أشعر بجسدي خفيفاً كالهواء.. والساعة لم تتجاوز العاشرة بعد.. لا يمكن أن أنام الآن.. على الأقل ساعتين أخريين.. ليبدأ العام الجديد ولأتمنىٰ لنفسي عاماً جديداً ليس سيّئاً كهذا!! هذا يكفيني.. لن أتبجّح بعد الآن.. كنت أطمح للكثير الكثير وهأنذا أرضىٰ بالقليل القليل.. ولكن يجب أن أتنشّط قليلاً، كيف؟!

... هيء هيء، حسناً فعلت، هذا الماء الساخن يعطيني الحيوّية.. يا أخي هذه التدفئة المركزّية إنجاز حضاري فعلاً، سأنهي غسل جوربيّ في دقائق.. أشعر بالنشاط يدبّ في مفاصلي من جديد.. جميل أن تكون المياه الحارّة متوفّرة في المنازل دوماً.. جميل يا أخي جميل، وإلا.. ماذا إذن؟!

حلب

دار الآداب تقدم

الدكتور أحمد علبي

طه حسين

رجل وفكر وعصر